ناحية من طاغور

يجب أن نفهمها نحن ...

للأستاذ حسين مروة

لم ترتعش روحى ارتعاشة الجزع فى تلك اللحظة وحدها : لحظة أذاع الأثير نبأ وفاة طاغور ، بل قد سرت فيها الرعشة كوجة الكهرباء منذ استطار فى العالم أن طاغور يعانى آلام المرض الخطير ، إذ اختلج فى إحساسى — حينذاك — أن هذه الإنسانية الكاملة التى تجتمع كلها فى شخص هذا العظيم ، قد أشرفت على ساعة الانتقال من دنيانا هذه إلى دنياها الجميلة فى ملكوت الله ، حيث تبلغ روح طاغور قمة الفرح الأسمى التى نشدتها بالحب الإلهى ، وبالتأمل فى جمال الأكوان التى (تحلُّها) روح الله .

قد اختلج فى إحساسى — حينذاك — أن إنسانيتنا المسكينة تكاد تلتهمها لجة اليأس بانقطاع هذا الخيط الجميل من نور الأمل الذى يمتد إليها من صوت طاغور .

وقد اختلج فى احساسى — حينذاك — أن أرضنا المعذبة تكاد تفقد فضلة إيمانها بالعدل والحق والخير ، بانطفاء هذا القبس الوهاج من إيمان طاغور .

وقد اختلج فى إحساسى ، كذلك ، أن ناس هذا الجيل تكاد تسكت فى جوانب ضمائرهم أصداء هذه الأنشودة الرخيمة التى يُترعها قلبُ طاغور رحمة ومحبة ودعوة صالحة للسلام ، فلا تتجاوب فى ضمائرهم — من بعدُ — إلا أصداء أنشودة واحدة تتعالى فى جوانب هذه الأرض من كل صوب ، يوقعها قلبُ ماردٍ جبار يحدو بالإنسانية إلى هاوية الخراب والدمار : تلك أنشودة الحرب التى تجلجل اليوم فى الضمائر أكثر مما تجلجل فى الآذان .

ويا سرعان ما صدق القدر كل هذا الذى اختلج فى إحساسى منذ تأذن الأثير باشتداد وطأة المرض على جسم طاغور ، ويا سرعان ما أزفت لحظة القدر ، فإذا هذا الإنسان العظيم يصعد إلى القمة العليا لينعم بحبه فى كنف الحبيب الأعلى ، تاركا هذه البشرية تزحف فى السفح الرهيب بين الآثام والأرجاس كما تزحف الحشرات الدنيا فى الأقذار والأنجاس .

وبعد : لقد مات طاغور ، فمن هو طاغور ؟

أهو شاعر ؟ أجل : ولكن شاعر يتغنى بأشواق الروح ليطهر أشواق الجسد ، ويعلن نداء الخير ليسكت صرخة الشر ، ويشيد بجمال الموت ليسمو بجمال الحياة ، ويهدهد أحلام القلب لتزين جلال العقل ، ويمقد أفراح الأمل ليهدم أبراج اليأس

أهو فيلسوف ؟ نعم : ولكن فيلسوف يتسامى إلى ما وراء الطبيعة لا لكى يهجر بيت الطبيعة ، بل لكى يستجلى أسرارها على هدى من الإشراق الإلهى ، ويستخرج كنوزها بعون من القدرة العليا المبدعة ، ويستكشف فضائلها وخيراتها على ضوء من صفاء الروح ، وسمو النفس ، وبساطة الفطرة ، ووضوح العقيدة ، وحرارة الإيمان ، وهذه هى خلاصة فلسفة الشرق القديم مجلوّة بروح جديدة ، هى روح طاغور الصافية ، الطليقة ، السمحة

أهو صوفى ؟ أجل : هو كذلك ، ولكن أية صوفية هذه التى يلبس « جبّتها » طاغور ؟

هى لون جديد فى دنيا التصوف ، لون محبب للنفس ومحبب للعقل معاً ، لأنها صوفية جميلة أنيقة مترفة ، لا تتقشف ولا تتزهد ولا تتزمت ، وهى — حين تسمو بروح طاغور عن دنيا البشر لتفنيها فى ذات الله فناء مطلقاً — لا تذهلها نشوة الفناء عن آلام بنى الإنسان وشقاء أبناء التراب ، وإنما هى تستمد من حبها الإلهى السامى ، ومن نشوتها الروحية العليا — فيضاً من الحب للانسانية جمعاء ، بل هى كلما أمعنت فى الاقتراب من الحبيب الأعلى أمعنت فى الاقتراب من الإنسانية : تتلمس آلامها ، وتتحسس أحزانها ، وتتأثر مواطن شقائها ، ذلك لكى تقيم الدليل ، بأسلوب من إلهام الروح ، على أن رابطة الحب السامى بين الله والإنسانية هى أسمى روابط الحب ، وهى أهدى طرق النجاة من هذه الآلام والأحزان وهذه الضروب المختلفة من الشقاء التى يعانيها الإنسان على هذه الأرض ، ولكى ترى هذه الصوفية العذبة على وضع الإدراك الصحيح —

يجب أن تقف بفكرك لحظة عند هذه الأغنية من أغاني (البستاني) التي يستهلها طاغور بنداء يهتف به أن : « قد آذنت شمسك بالمغيب واشتمل رأسك شيباً ، فحبك غناء وإنشاداً ، بل آن لك أن تصغي وتصيخ إلى داعي (الند) فتقول : لبيك »

فماذا يجيب طاغور هذا النداء ؟ :

« . . . من القلوب وعواطفها ، والعيون وأسرارها إذا أنا تبوأت من ساحل الحياة صخرة صماء ولبثت شاخصاً إلى أكمة الموت وما وراءها[1] »

أتراه الآن صوفياً كهؤلاء الصوفية المتزمتين الغارقين في لذاذة الفناء بالله حتى لا يحسون الحياة ولا تحسهم الحياة ؟

لا : بل إنك لتراه إنساناً طفحت نفسه بالحياة حتى تملأها إحساساً ، وتملكته رسالتها إيماناً وعشقاً ، واتحد فيها حبه الإلهي وحبه الإنساني معاً ، وما الحياة — في فلسفة طاغور — إلا تجلٍّ من تجالي الروح الإلهية العليا ، ومن هنا كان طاغور « الصوفي » منسجماً مع طاغور « القصصي » أو « الروائي » إذ تراه في قصصه وروايته يتناول صغائر حياة الناس ودقائقها يحللها ويجلوها صوراً إنسانية قوية الحركة والحيوية ، تثير في النفس ألواناً من العواطف والإحساسات النبيلة . ومن هنا أيضاً كان طاغور « الصوفي » منسجماً مع طاغور « الشاعر » ذلك الانسجام نفسه ، فتصوف الرجل لا يعني — في الواقع — إلا الحب بأرحب معانيه : الحب المنبثق من نفس رحبة تحب الله لكونه هو الله ، وتحب الإنسان لكونه إنساناً ؛ وإنك إذا رأيت إنساناً يدعي الإغراق في حب الذات الكلية العظمى ، ثم ينأى عن أخيه الإنسان ويضن عليه بحبه ؛ فقل : إن هذا لا يعرف الله حقاً ، ولا يحبه حقاً ، وإنما هو يحب نفسه ليس غير : يشفق عليها من العذاب الخالد ، أو يرجو لها النعيم الخالد

ومن هذا كله ترى طاغور الشاعر ، والفيلسوف ، والصوفي ، والقصصي — يأتلف وينسجم مع طاغور « المصور » و « الموسيقي » أجمل وأتقن ما يكون الائتلاف والانسجام ، ذلك لأن شاعريته الرحبة ، وفلسفته المشرقة ، وصوفيته السمحة ، وفنه القصصي الحي — ليست هي كلها سوى مظهر من مظاهر رسالته الروحية التي شاء الله أن يلقيها إلى إنسان تتسع نفسه للتعبير عنها بكل ضرب من ضروب التعبير الجميل

أما طاغور « الإنساني » فهو هو نفسه ذلك الانسان المتعدد الجوانب ، المتنوع « الشخصيات » ، وليست إنسانيته « شخصية » مستقلة مندمجة في « شخصياته » تلك ، لأن الروح الإنساني الشامل هو مركز القوة لكل ناحية من نواحيه ، بل تكاد تنحصر عظمة هاتيك النواحي بما تمدها به هذه الإنسانية الكبيرة من معاني السمو ، والسماحة ، والصفاء ، والشمول ؛ وبكلمة واحدة : إن جوانب طاغور المتعددة ، وإن مواهبه المتنوعة لتجتمع كلها في هذه « الإنسانية » الرحبة فتؤلف منها شخصية واحدة تشبه الكل البسيط الذي لا يتجزأ ولا يقبل التحليل والتفكيك

بقيت ناحية واحدة أغفلت ذكرها فيما سبق عمداً لأنها هي الناحية التي أقصد إليها في عنوان هذا المقال ، ولذلك أردت أن أتحدث عنها منفردة لكي أبلغ القصد الذي أرمي إليه ، وإن كانت هذه الناحية ليست إلا وجهاً من وجوه الصفة الإنسانية الغالبة على روح طاغور ، وأعني بهذه الناحية وطنية الرجل ، أو مفهوم الوطنية في تفكيره ، وفي اتجاهه الروحي ، وهنا أحب أن أعترف للقارئ الكريم بأنني — حين أقدمت على التعبير عما أحسست من جزع لفقد هذا الإنسان العظيم — لم أطمح لدراسته دراسة « تستوعب نواحي عظمته جميعاً » ، وهي أبعد من أن تنال بهذه الكلمات الطائرة ، ولكنني أردت أن أستعين بهذا القدر الضئيل الذي أملك من الطاقة الروحية والذهنية على الوفاء بواجب ذي وجهين : وجه يتعلق بهذا العظيم الذي بلغ نشوته الكبرى بلقاء الروح الكلي الأعظم ، ووجه يتعلق بهذا الوطن العربي الذي يتقاضانا استخلاص العبرة ، واستخراج ناحية الانتفاع العملي من سيرة هذا العظيم ، وإذا كانت نواحي طاغور كلها موضع الانتفاع لكل وطن ، وكل قوم ، وكل فرد — فإن ناحيته الوطنية أشد لصوقاً بما نحن فيه اليوم من أحوال وظروف ، لأننا اليوم أحوج ما نكون إلى تفهم معنى الوطنية على ضوء جلي من تفكير وإلهام هذا الإنسان الملهم ، فلقد كادت تنقلب عندنا مقاييس الوطنية انقلاباً غريباً ، حتى كادت تكون الوطنية التي

(١) البستاني ترجمة وديع البستاني ص ١٦

نفهمها هذه الأيام لا تعنى سوى ارتقاب واغتنام أقصر الفرص لكسب الرزق أو الشهرة أو الحكم ، سواء أكان فى ذلك خير الوطن أم جلب الضر إليه ، وسواء أكان فى ذلك تخفيف الشقاء عن أهليه أم إنزال الشقاء عليهم أضعافاً مضاعفة

إن طاغور « الإنسانى » الذى يشمل الإنسانية جمعاء بحبه وحنوه وصفاء قلبه ، هو نفسه طاغور « الوطنى » الذى أفاض على الهند من هذا الحب والحنو والصفاء ما عرفه الهنود أنفسهم وقدروه قدره ، وقابلوه بفيض مثله من الحب والإكبار والإيمان ، وهل هذا غريب ؟

كلا : ليس شىء أقرب للاتساق مع الطبيعة والمنطق من أن يكون طاغور الإنسانى وطنياً صادقاً ، عميق الإخلاص ، يؤثر مواطنيه بقسط كبير مما وهب قلبه الكبير من الحب الخافق والحنان الشامل ، ولكن ما هو مفهوم هذه الوطنية التى تتسق ذلك الاتساق مع نزعة إنسانية تتخطى الحدود والمعالم ، وتتخطى العرف والتقاليد والأوضاع ؟!

نترك الحديث عن وطنية طاغور وعن حدود هذه الوطنية فى ذهنه — إلى سيرته العملية أولاً ، ثم إلى آثاره الأدبية ثانياً

أما سيرته العملية فتتجلى فيها وطنيته من نواح عدة : فلقد عنى طاغور برفع مستوى شعبه العقلى والروحى والاجتماعى عناية تظهر آثارها العظيمة فيما أسس من مدارس لتطبيق تعاليمه الفكرية والروحية والاجتماعية : تعاليمه التى يؤمن بها إيماناً منقطع النظير ، وتتملكه رسالتها النبيلة تملكا يشبه من وجوه كثيرة حالات القديسين ، تلك التعاليم التى كانت فى عقيدته خير وسيلة لإنقاذ الشعب الهندى من صغاره وعبوديته ، ومن شقائه وبلائه ، ومن ضعته وانحطاطه ، ولعل أروع ظاهرة فى سيرته العملية هذه ، هى محاولته التخفيف من حدة التقاليد البرهمية التى كانت توسع شقة الفوارق والحواجز بين طبقات الشعب وطوائفه ، وأنبل مظاهر هذه المحاولة تأسيس طاغور مدرسة عالية لطائفة المنبوذين ليثقفهم تثقيفاً عقلياً وروحياً يغرس فى نفوسهم الاعتزاز بكرامتهم الإنسانية ، ويشعرهم بأقدارهم فى الوجود ، ولقد أفاد طاغور من هذه المحاولة أن بث فى روحية هؤلاء المنبوذين الخامدة لهباً من روحه كاد يقربهم منزلة من الطبقات الأخرى المترفعة عنهم ، وفى هذه المحاولة — كما ترى — مظهر رائع للوطنية الحق ، بمقدار ما فيها من نزعته الإنسانية النبيلة ، وفى سيرته العملية مظهر آخر للوطنية يتجلى فى دعوته إلى إخماد لهب الأحقاد بين المسلمين والهندوس ، وإطفاء ثائرة البغضاء بين جميع الطوائف التى تؤلف شعوب الهند ، ولقد كانت له فى هذا السبيل صيحات كريمة نافعة

فها أنت ترى أن الوطنية فى عرف طاغور ليست عملاً سلبياً مبنياً على الصراخ والتهويش والادعاء الفارغ والتشدق بالألفاظ الفخمة المجنحة ، بل هى عمل إيجابى صامت يبنى وينشئ ويتناول بالبناء والانشاء عقل الأمة وروحها قبل كل شىء ، لأن الأمة فى رأيه ليست أمة حقاً إذا لم تكن ذات عقل ناضج وروح سام ، وذات وحدة عقلية وروحية شاملة ، على أن تكون فى وحدتها العقلية والروحية مجتمعة على الإيمان بمثلها العليا ، إيماناً يلهب وجدانها بنزعة التأمل فى جمال هذه المثل الكريمة ، وبنزعة التقديس لمظاهر الألوهة فى هذا الكون العظيم —

هذه أروع مجالى الوطنية فى سيرة طاغور العملية ، وهى فى ذاتها أمثلة عالية للاعتبار والاحتذاء ، وهى كذلك حدود واضحة لمعنى الوطنية الصحيح . أما ما تحدثنا به آثار هذا الرجل الأدبية عن مفهوم الوطنية فى ذهنه ، فحسبك أن تقف من ذلك على بعض رواياته التى يدير فيها الحوار على ألسنة أشخاصها مشبعاً بالآراء والأفكار السامية حول موضوع الوطنية وحدودها ، ولعل فى روايته « البيت والعالم » أعظم آرائه وأفكاره فى هذا الباب ، فلقد دارت هذه الرواية كلها حول هذه النقطة ، وهى حدود معنى الوطنية كما تستقر فى ذهن شخصين يختلفان كل الاختلاف بالاتجاه الفكرى وبالمزايا النفسية وبالنزعات الخلقية أما أحدهما « ساندیب » ، فهو زعيم وطنى يثير حماسة الجماهير ببلاغة منطقه وبقوة إيحائه النفسى ، وبهذا الأسلوب نفسه ، يلهب حقد الشعب على الأجانب ، ويدفعه إلى مقاطعة بضائعهم ، ويغريه بإيذاء المواطنين المتخلفين عن تنفيذ تعاليمه بكل وسيلة من وسائل الإيذاء ، بل يغريه فى سبيل ذلك باستباحة كل جريمة وبارتكاب كل منكر ؛ وأما ثانيهما « نيكهل » ، فهو من راجات الهند ، مثقف ثقافة عالية ، ومهذب تهذيباً نفسياً سامياً عجيباً ،

وبسمو تهذيبه هـذا استطاع أن يطهر نفسه من الأحقاد والأضغان ، وأن يحملها على الهدوء والصفاء والتسامح فى وجه الأزمات والرجات النفسية ، وفى وجـوه الأشخاص الذين يحدثون هذه الأزمات والرجات فى مجرى حياته ، وجاهد فى أن يطهر نفسه أيضاً من نوازع الأنانية العمياء التى تضحى بهناء الآخرين وشخصياتهم فى سبيل هناء وشخصية صاحبها ، ثم يصوره لنا طاغور رجلاً قوى السلطان على نفسه إلى غاية استطاع عندها أن يكون إنساناً سامياً حقاً ، ثم يصوره رجلاً وطنياً يحب هناء شعبه ورخاءه وصون كرامته ، ولـكنه لا يتبجح بوطنيته هذه ، بل يعمل لها بهدوء وصمت : ينشئ المعامل لتشغيل العمال وتوفير الحاجات الصناعية الوطنية ، ويقتنى لبيته الأثاث الوطنى ويتغذى الأغذية الوطنية ، ويستعمل أدوات الزينة الوطنية ، ولـكنه — مع كل ذلك — لا يحاول إيذاء الأجنبى بإخراج بضائعه من مقاطعته ، أو إحراقها كما يفعل « سانديب » ، ولا يحاول أن يقهر أحداً من مواطنيه على استعمال بضاعة معينة ، لـكى لا يكون فى ذلك حرج أو ضرر عليه ، وهو — من أجل هذا — يقف من حركة « سانديب » موقف التحفظ والحذر ، وقد يحاول أن يجادل « سانديب » فى أساليب حركته العنيفة ، مصطنعاً فى جداله الهدوء والمنطق الرزين ، مبتعداً فى هذا الجدال أيضاً عن التأثر بالعصبية لرأيه رغم إيمانه به كل الإيمان .

أما « سانديب » ، فيصوره طاغور على النقيض من صـورة « نيكهل » هذه ، إذ يُرينا نفسه تصطخب بدوافع ونوازع هائلة مخيفة ، ويرينا شخصيته لا تستمد فى تزعم الحركة الوطنية إلا على بلاغة المنطق وقوة الاستهواء ، بل لقد صوره طاغور رجلاً خداعاً ماكراً يستبيح لنفسه السرقة باسم الوطنية ، ولا يجد حرجاً فى إغراء زوجة « نيكهل » بالتمرد على حياتها الزوجية الوادعة المطمئنة ، المغمورة بسعادة الحب الجليل ، مستغلاً نزعتها الخيالية ليستفيد من أموالها ، يروى بها شهوات نفسه المتعطشة للزعامة لذاتها كغاية لا وسيلة ، وهكذا يستمر طاغور متتبعاً خطوات « سانديب » فى حركته الطاغية العنيفة حتى يستحل فى سبيلها خداع زوجة « نيكهل » ، وهدم هناءتها الزوجية ، وهدم أحلامها العظيمة التى بناها هو لها فى خيالها الملتهب ،

وحتى يُنهى حياة هذه الأسرة الطيبة بفاجعة مروعة على حساب وطنيته المموّهة

بهـذا التصوير البارع يحدد لنا طاغور حقيقة الوطنية كما يرتضيها هو ، وكما يؤمن بها كوسيلة لعمل المنتج فى سبيل الأوطان ، ولعل هذا العرض يبقى ناقصاً إذا لم نشفعه ببضعة آراء وأفكار خطيرة أدارها على لسان « نيكهل » الذى يبدو لنا أنه هو الشخص المختار فى هذه الرواية لتمثيل آراء طاغور نفسه فى الوطنية ، وأنا أعرض هذه الآراء والأفكار لا لأجل إيضاح معنى الوطنية عند طاغور وحسب ، بل لأجل أن تكون أمثالاً عليا نؤمن نحن بها ، ونحفر لها مستقراً أميناً فى قرارات وعينا ، لعلها تكون عوناً لنا فى هذه الظروف والأحوال التى تحيط بنا اليوم :

قال (نيكهل) بعد أن أخرج المربية الأجنبية من قصره بتأثير ضغط الحركة الوطنية التى يقودها (سانديب) ، وقد شهدها بنفسه فى عربته فانتقدته الصحافة الوطنية المتطرفة لأجل ذلك من الانتقاد : « إننى أخدم بلادى ولكنى لا أعبدها ، فإنى أعبد الحق وهو أعظم من بلادى ، أما من يعبد بلاده كما يعبد الله فهو يسىء إليها ويتوهم أنه من المحسنين »

وكان نيكهل يجادل سانديب فى بعض آرائه الوطنية فقال له :

« . . . أما حقيقة رأيى — الكلام لنيكهل — فهى أن الذى لا يستطيع أن يتحمس لبلاده كما هى حقيقة ، والذى لا يستطيع أن يحب إنساناً لمجرد كونه إنساناً ، والذى يريد تأليه وطنه بالهتاف والهياج — فهو يحب الهياج أكثر مما يحب وطنه »

وحين شاع أن خزينة المهراجا قد سرقت جاء إلى (نيكهل) أستاذه الحكيم ، وفيما هذا يتحدث عن (سانديب) وأتباعه قال هذه الكلمة العظيمة يعنى بها رجال الحركة المتطرفين : « لقد وضعوا الوطن حيث طردوا الضمير »

وقال (نيكهل) وهو فى نقاش مع (سانديب) :

« إنى أقول لك الحقيقة (ياسانديب) : إنك تجرح عواطفى حين تدعو الظلم واجباً ، وتطلق على البغى اسم الخيال الأدبى ، فليس العقل هو الذى يمنعنى عن السرقة بل الذى يمنعنى عنها عاطفة تدعونى إلى احترام نفسى »